تجارة الكتب في العصر العباسي

د. عبدالجبار حامد احمد(*)

تمهيد

فضل الكتب وأهميتها

للكتاب مكانة كبيرة في الحضارة العربية الإسلامية، لان العلم والمعرفة سمة مميزة من سمات هذه الحضارة، واحد الدعائم الأساسية التي كانت وراء نهضتها، لذلك فان رقي وتقدم الأمة العربية الإسلامية يقاس بكثرة علمائها وما أنتجه أولئك العلماء من معارف علمية سواء التي وصلت أو لم تصل إلينا. لذلك كانت عناية العرب والمسلمين فائقة بالكتب والمكتبات، لان الكتاب وعاء المعرفة ولان الإسلام أكد على العلم والتعلم، قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥))[١]، وقال (نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١))[٢]، وقال (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ(٩))[٣]، مبينا في

(*) قسم التاريخ _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

(١) العلق، الآية: ١-٥.

(٢) القلم، الآية: ١.

(٣) الزمر، الآية: ٩.

ذلك أهمية العلم والمتعلم وفضله على الجاهل. وقال الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) مبيناً فضل العلم والعلماء والحرص على طلبه: (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء)[٤]، وقال: (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[٥]، وقال: (اقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد)[٦].

هذه الدعوات لطلب العلم والحث عليه كانت من نتائجها المثمرة الاهتمام بالتأليف والتصنيف وغزارة الكتب التي حوت مختلف العلوم والمعارف واصبح هناك حب شديد للكتاب واقتنائه والعناية به، لأنه الوسيلة الوحيدة لحفظ العلوم عبر العصور والأجيال، وهو خير معين على التزود بالعلم والمعرفة، لذلك التي على الكتب ومدحها جمهور العلماء، ومنهم الجاحظ الذي زاد في وصفه للكتب مظهرا في ذلك حبه لها وشغفه بها، فقد قال عنها: ((الكتاب نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعدة ونعم العشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاء ملء علما، وظرف حشي ظرفا، واناء شحن مزاحا وجداً، ان شئت كان أبين من سحبان وائل، وان شئت كان اعيي من باقل، وان شئت ضحكت من نوادره وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وان شئت الهتك طرائفه وان شئت اشجتك مواعظه.... ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر والخفي والظاهر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافة والجنس وضده....))[٧]، وقال: ((والكتاب هو

(٤) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، (مصر: ١٩٣٩)، ١/ ١٢.

(٥) سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (مصر: ١٩٥٢)، ١/ ١٨.

(٦) الغزالي، إحياء، ١/ ١٢.

(٧) الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: فوزي عطوي، (دمشق: ١٩٦٨)، ١/ ٣٣-٣٥.

الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يغريك والرفيق الذي لا يملك والمستميح الذي لا يشتريك والجار الذي لا يستبطيك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ولا يحتال لك بالكذب....))[٨]، وقال المتنبي:

اعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب[٩]

ان هذه الأهمية التي أعطيت للكتب وهذا المدح والثناء الذي أضفي عليها فضلا عن قيمتها العلمية والثقافية، جعل منها موضع اهتمام من قبل العلماء والمثقفين وأصحاب العلاقة، مما حدا بهم ان يهتموا بها نسخا وزخرفة وتجليدا وتجارة كما سيأتي شرحه.

أسواقها

كانت للكتب أسواق رائجة لغرض بيعها وشرائها والمتاجرة بها، وظهر التجار والدلالون وأنشئت الأسواق المتخصصة (دكاكين الوراقين) لهذا الغرض، وكانت هناك معايير محددة ومتفق عليها لبيع وشراء الكتب يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار، منها: إلقاء نظرة عامة على أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه، وتصفح أوراقه[١٠] للتأكد من إتقانه وصحة إخراجه نسخا وتجليدا وترتيبا لفصوله.

---

(٨) نفسه، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٩) ديوان المتنبي، ص٤١ الحبشي، عبدالله، الكتاب في الحضارة الإسلامية، ط١، (الكويت: ١٩٨٢)، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ص١٠.

(١٠) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، تحقيق: محمد هاشم الندوي، (حيدر اباد ـ الدكن: ١٣٥٤هـ)، ص ١٧٢.

جدير بالذكر ان تجارة الكتب ظهرت منذ وقت مبكر، أي منذ اختراع الورق وظهور أسواق ودكاكين الوراقين، وكانت الكتب تباع في تلك الأماكن[١١]، وقد انتشرت هذه الدكاكين في الدولة العربية الإسلامية، وكانت تعكس النشاط العلمي والثقافي فيها، فقد ذكر انه في الجانب الشرقي من بغداد وحدها بلغ عدد هذه الحوانيت في (ق ٣هـ/ ٩م) اكثر من مائة حانوت[١٢]، كما كان في مصر أيام الطولونيين والاخشيديين سوق كبير للوراقين تعرض فيه الكتب للبيع[١٣]. ومن هذه الحوانيت التي انتشرت في الدولة العربية الإسلامية حانوت أبي الفضل احمد بن أبي طاهر طيفور (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) الذي كان في سوق الوراقين في الجانب الشرقي من بغداد[١٤] وكذلك حانوت أبي عبدالله الموصلي. محمد بن المظفر بن محمد بن الحسين المعروف بابن جعرة (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) الذي افتتحه في الموصل لبيع الورق والكتب[١٥].

وكان أبي الفرج الأصفهاني مؤلف كتاب (الأغاني) يتردد إلى سوق الوراقين ليشتري منها كتبا[١٦]. وكذلك المتنبي يكثر من زيارة سوق الوراقين ومطالعة ما يقع فيها من المؤلفات[١٧]. مما يشير إلى انها أسهمت في

---

(١١) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ط٣، (بيروت: ١٩٨١)، مؤسسة الرسالة، ص ١٦٥.

(١٢) اليعقوبي، البلدان، (ليدن: ٢٨٩٢م)، ص ٢٤٥.

(١٣) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ٧٦.

(١٤) الرحيم، عبدالحسين مهدي، ((الورقة والوراقون في الشرق الإسلامي عبر العصور الإسلامية))، بحث منشور في مجلة دراسات في التاريخ والآثار، (بغداد: ١٩٨٨)، ع ٥، ص ١٩٥.

(١٥) ابن الشعار، عقود الجمان، ٦/ورقة ١٨٥ أ و ب.

(١٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ١١/ ٣٩٩. زيات، حبيب ((الوراقة والوراقون))، ص ٣٥٠.

(١٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٤ / ١٠٣؛ زيات، حبيب ((الوراقة والوراقون))، ص ٣٥٠.

بيع وشراء الكتب ورواجها بين الناس وانها كانت المكان الملائم والطبيعي للتعامل بالكتب.

ويمكن الإشارة إلى ان بعض نشاطات أسواق الكتب على النحو التالي:

أ. بيع وشراء الكتب على مستوى الأفراد

يتمثل هذا النوع من تجارة الكتب بأن يقوم النسّاخ والوراقون بنسخ الكتب المهمة والتي لها سوق رائجة ثم يبيعونها للناس، ويبدو أنهم كانوا يحتكرون الكتب المهمة لكي يتم بيعها باسعار مرتفعة للناس، يذكر الخطيب البغدادي انه ((لما فرغ الفرّاء من تأليف كتاب (المعاني) خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به وقالوا لا نخرجه إلا لمن أراد ان ننسخه له على خمس أوراق بدرهم فشكا الناس إلى الفرّاء فدعا الوراقين وقال لهم في ذلك، فقالوا انما صحبناك لننتفع بك وكل ما صنفته فليس بالناس إليه حاجه ما بهم إلى هذا الكتاب فدعنا نعيش به فقال: قاربوهم تنتفعوا وينتفعوا فأبوا عليه فقال: سأريكم،وقال للناس: اني مُمْلٍ كتاب (معان) أتم شرحا وابسط قولا من الذي أمليت، وجلس يملي فأملى (الحمد) في مائة ورقة، فجاء الوراقون إليه وقالوا: نحن نبلغ الناس ما يحبون فنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم))[١٨].

وكان أبي القاسم بن بنت المنيع (ت ٣١٧هـ/ ٩٢٩م) قد حصل على الجزء الأول من المغازي وطاف به لكي يبيع منه لمن يرغب به فعرضه على أبي عبدالله بن مغلس فدفع إليه عشرين دينارا وقال له: اكتب لي منه نسخة، ثم عرضه في ذلك اليوم على آخرين وطلبوا منه ان ينسخه لهم مقابل أجرة بين عشرة إلى

(١٨) تاريخ بغداد، ١٤/ ١٥٠.

عشرين دينارا فحصل ما يقرب من مائتي دينار في يوم واحد[١٩]، كما كان السري الرفّاء الشاعر الموصلي (ت ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) ينسخ شعره ويبيعه[٢٠]، وكان أيضا ينسخ ديوان أبي الفتح كشاجم ويدس فيه قصائد من شعر الخالديين الشاعرين الموصليين ليزيد في حجمه ويرفع سعره[٢١] بسبب شهرة هؤلاء الشعراء وتداول دواوينهم في تلك الفترة. وكان الحسن بن شهاب العكبري (ن ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) يشتري كاغدا بخمسة دراهم ثم يكتب ديوان المتنبي في ثلاث ليال ويبيعه بمائتي درهم أو مائة وخمسين درهما[٢٢]، اما أبي الدر ياقوت بن عبدالله الموصلي الملقب بأمين الدين (ت ٦١٨هـ/ ١٢٢١م) فكانت كتبه التي ينسخها تباع بأغلى الأثمان وقد نسخ أعداداً كبيرة من كتاب (الصحاح) للجوهري، ومقامات الحريري[٢٣]، وكانت كل نسخة من صحاح الجوهري ينسخها في مجلد فتباع بمائة دينار[٢٤]. وبذلك استطاع النساخ والوراقون ان يسهموا ببيع وشراء الكتب ويساعدوا على نشرها وتداولها بين الناس.

---

(١٩) نفسه، ١٠/ ١١٣ ـ ١١٤.

(٢٠) نفسه، ٩/ ١٩٤.

(٢١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ٢/ ١١٨؛ الحموي، معجم الأدباء، ١١/ ١٨٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢/ ٣٦٠.

(٢٢) تاريخ بغداد، ٧/ ٣١٩ـ ٣٣٠؛ ابن الجوزي، المنتظم، ٨/ ٩٢.

(٢٣) الحموي، معجم الأدباء، ١٩/ ٣١٢ـ٣١٣؛ ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٤٠٥.

(٢٤) ابن خلكان، وفيات، ٦/ ١١٩؛ اليافعي، مرآة الجنان، ٤/ ٤٣.

ب. دور التجار في بيع وشراء الكتب

ان تجارة الكتب في العصر العباسي كانت تجارة رائجة وقد مارسها كبار العلماء والأدباء الذين نقلت أخبارهم كتب التاريخ والتراجم والأدب وابرز هؤلاء التجار:

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق (ت ٣٨٥هـ/ ٩٦٨م) صاحب كتاب الفهرست، الذي كان ورّاقا ببيع الكتب كما يذكر الحموي[٢٥]، مما يشير إلى ان الوراقة وبيع الكتب مهنتان متلازمتان[٢٦]، ولا شك ان ابن النديم يعد من كبار العلماء وان كتابه الفهرست يدل على سعة اطلاعه في مختلف العلوم والفنون، ولعل الراجح في سعة اطلاعه وتحققه من الكتب والمؤلفات يعود لامتهانه الوراقة والكتابة[٢٧]. فضلا عن بيعه الكتب، ناهيك عما ورد عنه من انه كان أمينا لإحدى مكتبات بغداد[٢٨] إلا انه لم يُذكر اسم هذه المكتبة.

وكذلك من تجار الكتب الذين وردت أخبارهم احمد بن جعفر بن الحسين بن علوان التكريتي الأصل الذي ولد سنة (٥٦٠هـ / ١١٦٤م). إذ كان تاجراً للكتب وبائعاً لها، وكان كثير التردد إلى الموصل لهذا الغرض[٢٩]، مما يشير إلى ان تجار الكتب كانوا يتاجرون بها بين البلدان.

---

(٢٥) معجم الأدباء، ١٨/ ١٧.

(٢٦) الرحيم، عبدالحسين مهدي، ((الوراقة والوراقون))، ص ١٩٥.

(٢٧) نفسه، ص ١٩٧.

(٢٨) نفسه، ص ١٩٧.

(٢٩) ابن الشعار، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، ١/ورقة ٢١٥ب، ٢١٦أ.

كما كان لياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) صاحب (معجم الأدباء) و (معجم البلدان) شأن في هذه التجارة، فقد مارس مهنة الوراقة والنسخ ثم المتاجرة في الكتب وارتياد المكتبات العلمية[٣٠]، وقد حدت به هذه المهنة إلى تتبع أخبار العلماء والأدباء ومؤلفاتهم التي دونها في كتبه المشار إليها أعلاه. وهناك غيرهم الكثير من التجار.

ان ما ورد من أمثلة قليلة عن تجار الكتب يبين ان الذين اشتغلوا بهذه المهنة هم من كبار العلماء ولهم مؤلفات قيمة مما يشير إلى ان هذه الحرفة كانت من الحرف المرموقة، ولا يحترفها إلا من كان له اهتمام بالمعرفة العلمية.

جدير بالذكر ان بعض ممن امتهن تجارة الكتب قد جمع من الكتب والطرائف والنوادر أمثال الوراق المعروف بالطرطوسي البغدادي الذي جمع من هذه الكتب وأهدى أبي نصر سهل بن المرزبان مجلدة بخط السري الرفاء، فأستصحبها أبي نصر إلى نيسابور في جملة ما حصل عليه من طرائف الكتب[٣١]، ولكن لم يذكر ما هو هذا الكتاب وما هو موضوعه.

وممن عرف بالطرائفي أيضا احمد بن يوسف بن أبي الزهر الحلبي (ت ٧٥٣هـ/ ١٣٥١م) الذي كان له حانوتا بباب جيرون[٣٢].

---

(٣٠) الرحيم، عبدالحسين مهدي، ((الوراقة والوراقون))، ص ٢٠٣.

(٣١) يتيمة الدهر، ١/ ٤٥٠-٤٥١.

(٣٢) زيات، ((الوراقة والوراقون))، ص ٣٤١.

يرتبط بتجارة الكتب الدلالون الذين يبيعون الكتب بالمزاد العلني[٣٣]، وكانت تقام في دكاكين الوراقين حلقات لبيع الكتب[٣٤]، فقد ذكر الحموي نقلا عن الشيخ أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، ان الأخير حضر حلقة يباع فيها الكتب وان تلك الكتب كان ينادي عيها بالمزاودة[٣٥].

ومن اشهر دلالي الكتب أبي المعالي، سعد بن علي بن القاسم الأنصاري الحظيري البغدادي (ت ٥٦٨هـ / ١١٧٢م) صاحب كتاب (زينة الدهر وعصرة أهل العصر) الذي جعله ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب (لمح الملح)[٣٦]، وكان أديبا فاضلا شاعرا[٣٧] يعمل دلالا للكتب في بغداد، وهو يتميز بالذكاء والفطنة كما يصفه ابن الجوزي[٣٨]. وكذلك ابن صورة، أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي بن خلف الأنصاري (ت ٦٠٧هـ / ١٢١٠م)، إذ كان سمساراً للكتب في القاهرة وكان يجلس في داره يومي الأحد والأربعاء من كل أسبوع فيحضر عنده الفضلاء والرؤساء والعلماء فيعرض عليهم ما عنده من الكتب التي تباع، ولا يزالون عنده إلى وقت انقضاء السوق[٣٩].

ومنهم عبدالرحمن بن موسى بن عمر الناسخ، ابن المناديلي (ت ٧١٥هـ/ ١٣١٥م) الذي يوصف بحسن الخط ونسخ كثيرا من الدواوين الشعرية[٤٠].

---

(٣٣) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٦٥.

(٣٤) نفسه، ص ١٦٦.

(٣٥) معجم الأدباء، ١٥/ ٦٩.

(٣٦) زيات، ((الوراقة والوراقون))، ص ٣٤٠.

(٣٧) الحموي، معجم الأدباء، ١١/ ١٩٤ـ١٩٥.

(٣٨) المنتظم، ١٠ / ٢٤١.

(٣٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/ ١٧٧؛ الحموي، معجم الأدباء، ٨/ ١٧.

(٤٠) زيات، ((الوراقة والوراقون))، ص ٣٤٠.

يستنسخ مما سبق ان دلالو الكتب يتميزون بالاطلاع والمعرفة العلمية كما هو حال تجار الكتب، وهو أمر بديهي أن يكونوا من أصحاب المعرفة والاطلاع والولع باقتناء الكتب والتعامل معها.

وعلى الرغم مما يتصف به الدلالون والذين يتعاملون ببيع وشراء الكتب من العلم والمعرفة والاطلاع، إلا انه وردت روايات عن البعض منهم انهم مارسوا الحيل في تعاملهم من اجل شراء الكتاب بأبخس الأثمان أو الاستحواذ عليها دون غيرهم، وكانت لهم أساليب كثيرة في هذا الصدد، فمن ذلك ما ذكر عن مكتبات الدولة الفاطمية التي بيعت في زمن صلاح الدين الأيوبي، وكان البيع يجري في قصر الخلافة لمدة يومين في الأسبوع، وقد حاول الدلالون ان يقللوا من قيمتها وشأنها من اجل بيعها بابخس الأثمان، وكان بهاء الدين قراقوش متولي القصر - تركي الأصل - لا خبرة له بالكتب ولا دراية له بالأدب، فقال له الدلالون: ((هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى سمينها والغث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وكان القصد من ذلك ان يوكسوها ويخرموها ويعكسوها، فأخرجت وهي اكثر من مائة ألف من أماكنها وعريت من مساكنها وخربت أوكارها وذهبت أنوارها وشتت شملها واختلط أديبها بنحويها وشرعيها بمنطقيها وطبيبها بهندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها، فكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار ما يشمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً، إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً فاختلطت واختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً مبعثرة فتسام بالدون وتباع بالهون، والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عدة ويعلم ان عنده من أجناسها

وأنواعها وقد شارك غيره في ابتياعها حتى إذا لفق (لقضاء) كتاباً قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة)[٤١].

وروى عن أبي محمد عبدالله بن احمد الخشاب (ت ٥٦٧هـ/ ١١٧١م) انه كان إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع ورقة وقال: إنه مقطوع فيأخذه بثمن بخس[٤٢].

كما يروى عن القاضي الفاضل انه اشترى كتبا من مكتبات الفاطميين، وكان قد استحوذ على كمية منها، وقد اتبع أسلوبا من اجل منع غيره من الحصول عليها ومن ثم شراءها بابخس الأثمان فقد ذكر عنه: ((انه حصل للقاضي الفاضل قدر كبير منها حيث شغف بحبها وذلك انه دخل إليها واختبرها، فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على انها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب))[٤٣]. وقد حصل القاضي الفاضل بهذه الطريقة على مائة ألف مجلد من هذه المكتبة، وعندما انشأ مدرسته الفاضلية في القاهرة وضع فيها تلك الكتب[٤٤].

---

(٤١) أبو شامة، الروضتين، ١/ ٢٠٠؛ وانظر: حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٢٠.

(٤٢) معجم الأدباء، ١٢/ ٥١؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص ٢٧٧.

(٤٣) أبو شامة، الروضتين، ١/ ٢٠٠.

(٤٤) المقريزي، الخطط المقريزية، ٢/ ٢٥٤؛ حمادة محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٢١.

ج. دور الدولة في بيع الكتب

وفضلا عن قيام الأفراد من التجار والدلالون ببيع وشراء الكتب فقد كان للدولة دورها في إقامة مزادا لبيع الكتب أو تتدخل في عدم بيعها، ويبدو ان تدخل الدولة في بيع الكتب يكون في حالات خاصة ولأسباب معينة.

فمن تلك الحالات قيام صلاح الدين الأيوبي بطرح كتب المكتبات الفاطمية للبيع والتي بلغت ما يقرب من مائة وعشرين ألف مجلدة مختلفة الأصناف والعلوم واستمر بيعها عدة أعوام(٤٥). ويبدو ان قيام الأيوبيين بهذا العمل باعتبارهم ورثة الفاطميين لذلك اعتبروا تلك الكتب جزء من مملكات الفاطميين أو أنهم كانوا يرغبون بإخراج تلك الكتب التي كانت محصورة في قصور الفاطميين ونشرها بين الناس لتكون فائدتها اكبر وأعم، بدليل انه قد نقل منها ثمانية أحمال إلى بلاد الشام كما يذكر ذلك أبي شامة(٤٦)، كما اشترى منها كبار العلماء أمثال العماد الكاتب الاصبهاني صاحب كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) وكذلك القاضي الفاضل أحد العلماء والكتاب المقربين من صلاح الدين الأيوبي(٤٧). وهذه الحالة هي إحدى روافد بيع وشراء الكتب ونشاط تجارتها.

أو قد تتدخل الدولة بمنع بيع الكتب وتصديرها من بلدهم إلى آخر لا سيما إذا كان حكام ذلك البلد من المهتمين بالعلم والمعرفة، وهم شغوفين باقتناء الكتب، إذا كانت تلك الكتب نادرة ومفيدة ومنتقاة، من اجل ان تبقى في ذلك البلد وتغني

(٤٥) أبو شامة، الروضتين، ١/ ٢٠٠؛ المقريزي، الخطط، ٢/ ٢٥٤.

(٤٦) الروضتين، ١/ ٢٠٠.

(٤٧) نفسه، ١/ ٢٦٨؛ المقريزي، الخطط، ٢/ ٢٥٤.

حقول المعرفة وان في ذهابها افتقار للحركة الثقافية للبلد المصدر وإغناء ثقافيا للبلد المستورد[٤٨]، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن أبي اصيبعة في ترجمة الطبيب المعري افرائيم بن الزمان أنه كان من مشاهير الأطباء في مصر، وكانت لديه الكثير من الكتب الطبية، وقد التقى به رجل من أهل العراق في مصر واشترى منه كتبا قدرت بعشرة آلاف مجلد، وكان ذلك في زمن ولاية (الأفضل بن أمير الجيوش)، فلما سمع ذلك الحاكم منع من إخراجها خارج مصر وطلب ان تبقى فيها، ثم أرسل إلى صاحبها ثمنها الذي باعه بها للتاجر العراقي ونقلها إلى خزانته وكتب عليها ألقابه، وقد استفاد ابن أبي اصيبعة من تلك الكتب التي وجد عليها اسم افرائيم وألقاب الأفضل[٤٩].

د. بيع الكتب بعد وفاة صاحبها

وقد تقام أسواق لبيع الكتب بعد وفاة أصحابها لا سيما إذا كانوا من العلماء المقتنين للكتب الكثيرة، وبذلك فان مثل هذه الحالة تسهم في نشاط تجارة الكتب، فقد ذكر عن القاضي أبي المطرف الأندلسي (ت ٤٠٢هـ / ١٠١١م) قاضي الجماعة بقرطبة انه كان شغوفا بجمع الكتب، وكان له ستة نساخين ينسخون له دائما، وبعد وفاته اجتمع أهل قرطبة في جامعه لبيع كتبه التي استمرت عاما كاملا، وبلغ ثمنها

(٤٨) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٦٧.

(٤٩) عيون الأنباء، ٣/ ١٧٤ـ ١٧٥.

ما يقرب من أربعين ألف دينار[٥٠]، كما بيعت كتب ابن المطران بعد وفاته فبلغت في المناداة ثلاثة آلاف درهم[٥١].

هـ. أثمانها

لا شك ان أثمان الكتب تتأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلد فضلا عن عوامل أخرى تحدد ثمن الكتاب، ومن العوامل التي تؤثر في أسعار الكتب:

١. **الخط الجيد للكتاب:** كلما كان خط الكتاب جيدا خال من الأخطاء ومكتوب من قبل خطاط مشهور يكون ثمنه اكبر من الكتاب ذو الخط الرديء والمكتوب من قبل شخص ليست له شهرة[٥٢]، فقد كان ابن البواب، علي بن هلال (ت ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م) المشهور بحسن الخط وجودته تباع كتبه التي ينسخها بمبالغ كبيرة[٥٣]، وبيعت نسخة من (يتيمة الدهر) للثعالبي مكتوبة بخط محمد بن اسحق الزوزني (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) بثلاثين دينارا نيسابورية[٥٤]، كما بيعت النسخة الواحدة من كتاب (الصحاح) للجوهري بمبلغ مائة دينار وهي مكتوبة بخط ياقوت بن عبدالله الموصلي (ت ٦١٨هـ/ ١٢٢١م)[٥٥].

---

(٥٠) ابن بشكوال، الصلة، ١/ ٢٩٨-٢٩٩؛ وانظر: حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٦٦؛ حبشي، عبدالله، الكتاب في الحضارة الإسلامية، ص ٨٣.

(٥١) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ٣/ ٢٩٣.

(٥٢) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٦٨.

(٥٣) الحموي، معجم الأدباء، ١٥/ ١٢١-١٢٢.

(٥٤) نفسه، ١٨/ ٢٠.

(٥٥) ابن خلكان، وفيات، ٥/ ١٧٠.

٢. **نسبة المخطوط إلى شخص مشهور كخليفة أو وزير أو أمير**، وهو ما يسمى بكتب العظماء[٥٦]، ذكر المقريزي أنه عندما دخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر بعد احتلاله إياها على يد قائده جوهر الصقلي، حمل إليه أحد المقيمين في مصر مصحفا يذكر أنه كان ليحيى بن خالد بن برمك وقد اشتراه بمبلغ أربعمائة دينار وهو معجب به، وكان المعز لدين الله الفاطمي هو الآخر معجبا بهذا المصحف[٥٧].

٣. **شهرة مؤلف الكتاب**: لا شك ان الكتاب الذي صنفه عالم مشهور يباع بثمن أغلى من الكتاب الذي صنفه عالم غير معروف[٥٨]، فقد بيع كتاب (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي بخمسين دينارا أواخر القرن الثالث للهجرة[٥٩]، كما بيعت نسخة من كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني في القرن الرابع للهجرة بعشرة آلاف درهم[٦٠].

٤. **نوعية العلم الذي يحويه الكتاب وموضوعه**: لا شك أن الكتب التي تتضمن العلوم الشرعية واللسانية والطبية والرياضية وغيرها من العلوم المفيدة للإنسان وفي حياته العملية كانت تباع بأثمان عالية، في حين ان كتب الفلسفة ـ في بعض الفترات ـ كانت تحرق، فضلا عن محاربة الدولة وأهل السنة والجماعة للكتب الضالة وكتب الزنادقة والملاحدة، ولن يحصل أصحابها على

---

(٥٦) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٦٩.

(٥٧) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، (القاهرة: ١٩٤٨)، دار الفكر العربي، ص ٢٠٢.

(٥٨) حمادة، محمد ماهر، المكتبات في الإسلام، ص ١٦٩.

(٥٩) الحموي، معجم الأدباء، ١٦/ ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٦٠) نفسه، ١٣/ ١٢٥ ـ ١٢٦.

شيء يذكر كما انها لاتباع بثمن كما حصل للفيلسوف عبدالسلام بن عبدالقادر الكيلاني (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م) الذي أحرقت كتبه في الفلسفة والمنطق[٦١]. فكان الناس ينسبون كل من اشتغل بهذا الفن إلى فساد الاعتقاد كما جاء على لسان كمال الدين بن منعة (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)[٦٢]، ولا شك فان كتبهم كانت أثمانها رخيصة، فقد اشترى ابن سينا كتاب (ما بعد الطبيعة) لأبي نصر الفارابي بمبلغ ثلاثة دراهم فقط، وكان يعتقد انه يعود إلى الفيلسوف ارسطو وانه لا فائدة من هذا العلم، لكنه تبين له غير ذلك[٦٣]، مما يشير إلى ان سوق كتب الفلسفة كانت سوقا كاسدة.

وذكر انه بعد وفاة الحلاج احضر جماعة من الوراقين واحلفوا على ان لا يبيعوا شيئا من كتبه ولا يشتروها[٦٤].

وكان الحافظ مغلطاي قد ألف كتاب (الواضح المبين في من اشتهر من المتيّمين) فمنع الكتبيين من بيع ذلك الكتاب[٦٥].

واتُّهِمَ العلامة محمد بن الحسن الشيباني عند أول قدومه إلى العراق بأن معه كتاب الزندقة، فأرسل الرشيد إليه وحملت كتبه وأمر بتفتيشها[٦٦].

---

(٦١) ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٢٠٥؛ أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٥٥- ٥٦؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٨.

(٦٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥/ ٣١٤؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٣/ ١٧٠؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٦٣) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص ١٦٤.

(٦٤) حبشي، عبدالله، الكتاب في الحضارة الإسلامية، ص ١١٨.

(٦٥) نفسه، ص ١١٨.

(٦٦) نفسه، ص ١١٩.

٥. **وكان للعامل الاجتماعي دور مؤثر في أسعار الكتب ارتفاعاً وانخفاضاً،** فكلما كان المجتمع مستقراً مزدهراً متفتحاً أنتج الكثير من العلماء الذين لعبوا دورا مهما في زيادة العلم والمعرفة وانتشارهما، وانتشار الكتب ورواجها بين الناس مما يؤدي إلى ارتفاع أثمانها لكثرة الطلب عليها.

ويرتبط بذلك العامل الاقتصادي، فكلما كان المجتمع مستقراً كان اقتصاده مزدهراً وبالتالي فان التطور الاقتصادي يجعل الناس تتصرف إلى طلب العلم والمعرفة والبحث عن الكتب وشرائها، ومن ثم يؤدي ذلك إلى ارتفاع أثمانها.

في حين ان الاستقرار السياسي في مدينة ما. هو الآخر سيجعل من تلك المدينة مركز جذب للناس لا سيما العلماء منهم، خاصة إذا توفرت الظروف الاقتصادية الملائمة، وهذا يؤدي إلى رواج الكتب وكثرة الطلب عليها وارتفاع أثمانها، ناهيك عن دور الحكام الذين يعملون على تشجيع العلم والمعرفة ويقربوا العلماء والأدباء ويجزلوا لهم العطايا، فانه يكون عاملا مساعدا في زيادة التأليف والتصنيف وزيادة حركة تجارة الكتب، وهذا ينطبق على الدولة العربية الإسلامية عموما.

وعلى العكس من ذلك فان كساد الكتب ورخص أثمانها يحصل إذا كانت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية غير ما ذكر آنفا، فقد يؤثر على أسعارها وكسادها ورخص أثمانها.

فالحاجة للأموال تدفع البعض إلى بيع كتبه بأسعار زهيدة، كما فعل أبي الحسن بن احمد القالي ـ بالفاء) (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) عندما باع نسخة ثمينة من كتاب (الجمهرة) في اللغة لابن دريد بخمسة دنانير، وكتب عليها:

أنست بها عشرين حولا وبعتها فقد طال شوقي بعدها وحنيني
وما كان ظني انني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية صغار عليهم يستهل شؤوني[٦٧]

في حين ان الاضطرابات السياسية والصراعات تؤدي إلى اضطراب المجتمع وانشغاله في البحث عن وسائل العيش مما يجعلهم ينصرفون عن البحث عن الكتب مما يؤدي ذلك إلى انخفاض أسعارها وكساد سوقها.

ومما يساعد على كساد بعض الكتب ورخص أثمانها، النظرة المتدنية لبعض العلوم كما حصل لعلم الفلسفة والعلوم الأخرى كما سبق الحديث عن ذلك.

كما ان الكوارث الطبيعية وانتشار الأمراض والأوبئة هي الأخرى تسهم في كساد سوق الكتب وعدم رواجها بين الناس.

(٦٧) الحموي، معجم الأدباء، ٥/ ٨٣.